من الذاكـرة

العلم

أعظم مطلوب هو العلم النافع الذي يدلك على أسباب النجاة وهو الموروث عن معلم الخير ﷺ، وهو الدليل الأمين الذي لا يخدع صاحبه، ولهذا فضّل الله العلماء على غيرهم، وإنما يحصن العلم إذا صاحَبَهُ العمل، فتجرّد العلم عن العمل غواية، وتجرّد العمل عن العلم ضلال، وعجبي من أناس أفنوا أعمارهم في علوم لا يُبنى عليها خير الدنيا ولا خير الآخرة كمن تعمَّق في علم الأنساب والآثار والأشعار والأسمار، فيا أيها العاقل أنت في هذه الحياة كراكب ظهر سفينة تلعب بها الأمواج يميناً وشمالاً ولا بد لها من ربّان، والربّان هو العلم، والمحرك هو الإخلاص، والوقود هو العمل الصالح، فأعِدَّ العدة وخذ لك زاداً ينفع يوم العرض الأكبر، فما كل بضاعة رائجة هناك، واحذر الغش فإن الناقد بصير.

الأصدقاء

وقت الرخاء يكثر الأصدقاء وفي الشدة لا تجد إلا الله وحده، ولهذا لا تنخدع بعبارات الثناء العاطر والمديح المزيّف فإنها من الأوهام التي تنقشع قريباً، فكم رأينا من صديق أقسم الأيمان الغليظة على الوفاء، فلما انقلبت الدنيا انقلب معها، وكنتُ أتعجب ممن يشتكي من قلّة الوفاء وكثرة الجفاء من الأصدقاء حتى عشتُ ذلك عياناً بياناً، فينبغي للإنسان أن يوطِّن نفسه على الاتصال بربه وحده ويكون كما قال الطغرائي:

وإنّما رجلُ الدُّنيا وواحِدُها من لا يعوِّلُ في الدُّنيا على رَجُلِ

وقد عشنا مع زعماء وعلماء دوّت بمديحهم الدنيا وطنَّت بالثناء عليهم المعمورة، فلما ماتوا نُسوا قريباً إلا من ترك أثراً طيباً وعلماً نافعاً، إن فتح باب الصداقات معناه زيادة التكاليف، فكل صديق له حق من السلام والزيارة والعيادة والمساعدة والقرض، فإن لم تفِ بذلك صرتَ مذموماً ملوماً.

القناعة

من عرف الدنيا وتقلّبها بأهلها وسرعة تغيرها وغدرها بأبنائها رضي بالكسرة والغرفة وجرعة الماء؛ لأن المسألة سفر، وكلما تخففت في السفر كان أسهل

لحسابك، فكم رأينا من ولي صادق عاش في كوخ، ومن عالمٍ كبير رضي بغرفة ولكنه ما ترك تاريخاً من العلم النافع والعمل الصالح، وكم رأينا من رجل خطير وتاجر كبير ترك دوراً وقصوراً وحدائق ذات بهجة ثم مات فلا عين ولا أثر، وقد حضرت عزاء بعض الأثرياء الذين خلّفوا المليارات والشركات فإذا دوره بلاقع قد تقاسم أبناؤه أمواله وأُفرِد وحيداً في لحده، نُزعت منه ملابسه واختلست منه مدّخراته ونُهِبت كنوزه ثم أخذ يُسأل عن القنطار والقطمير، كما قال بعض السلف: ابن آدم إذا مات خسر ماله كله وسُئل عن ماله كله، فنسأله عيشة هنيئة، وميتة مرضيِّة في قناعة وكفاف لا غنىً مطغياً، ولا فقراً منسياً كما قال ﷺ: "**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**".

التلفزيون

لا ينبغي الانهماك أمام شاشة التلفزيون ليلاً ونهاراً؛ لأن في ذلك مضيعة للوقت وتعباً على القلب، إذ إن الأحداث والحروب تُعرض على الشاشة والمشاهد يعيش هذه الكوارث بقلبه، فيدخله الهم والغم من حيث لا يدري، ويبقى مشدوداً مكدراً طيلة يومه، فاجعل لمشاهدة الخبر أو مطالعة برنامج مفيد وقتاً معروفاً، واصرف باقي وقتك فيما ينفعك في دينك ودنياك، فقد رأيت أناساً أداموا النظر في التلفاز فأصابتهم كآبة، وهناك أطفال شاهدوا مواقف مرعبة فأُصيبوا بالخوف والفزع، فعليك أن تحرص على قلبك وبدنك ووقتك، ثم إن الانهماك في مشاهدة التلفاز ينسيك تلاوة القرآن والذكر والقراءة النافعة، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وتوزيع الأوقات على الواجبات دليل على اعتدال المزاج وصحة النظر، ومن اتقى الله سدده حتى في أصغر الأمور، والله الموفق سبحانه.

الوقت

رأيتُ غالب الناس ليس للوقت عندهم قيمة، فهم في زيارات متبادلة يتخللها غِيبة، وفي نوم طويل وفي غفلة ظاهرة، وبعضهم يذهب منه يومه بلا عمل صالح ولا تلاوة نافعة ولا قراءة مفيدة ولا عمل دنيوي نافع، والسبب في ذلك أن علمهم

بقيمة الزمان معدوم، عاشوا على العادة والتأثر بالجليس وكأنهم يتسابقون في تبذير الوقت وإنفاق الزمن بلا طائل، فالشباب في الغالب في سهر طويل عابث، وكبار السن في حديث مكرر لا نفع فيه، والنساء في جلسات عن القيل والقال، أما المستيقظون فهم قليل تجدهم قد أعدوا العدة وصرفوا الوقت فيما ينفع ما بين عمل صالح وعلم نافع وكسب حلال وقيام بالحقوق؛ كعيادة مريض وزيارة قريب ونفع مسلم، فلا يخرج اليوم على أحدهم إلا وقد ملأه أجراً وبراً، فنصيحتي لك أن تحرص كل الحرص على المحافظة على الوقت وصرفه في النافع المفيد، فإنه يسعى بك للآخرة وأنت لا تدري.

سالِم الناس

من سالم الناس يسلم من غوائلهم، ومن صالحهم أمِنَ شرهم، فلا تظهر لأحد العداوة بل لو عاداك أحد فادفع بالتي هي أحسن ولا تكثر الخلطة بهم والوثوق بكلامهم، فقد أخبرتنا التجارب أنهم ينقلبون مع الأحوال وكثير منهم له مصالح في الصداقة فلا تغتر بظاهر الأمر ولا تنخدع بمدحهم ولا تأسف من ذمهم، فغالبهم تسيّره العواطف، وعليك بإصلاح ما بينك وبين الله ولا تذكر أحداً بسوء، ومن لقيك منهم فأظهر له البشر وتبسّم في وجهه، تواضع له ولا تحرص على التصدر في مجالسهم والاستئثار بالكلام عليهم، فإن الحياة رحلة قصيرة فامنح غيرك فرصة الابتهاج بحياته والفرح بمواهبه، ولا تنافس الناس في دنياهم بل كلما اجتهدوا في جمعها فاجتهد أنت في جمع الحسنات وعمل الصالحات مع طلب الكفاف من الحلال، ومُلك كسرى يغني عنه كِسْرة.

السلطان

لا تعاند السلطان ولا تسترسل في الدخول عليه ولا تمدحه ولا تقدحه، وعليك بالدعاء له؛ فإن من عاند السلطان أسهر ليله وأذهب أمنه وأفسد عليه حياته، ومن داخله وصار من بطانته ذهب كثير من دِينه وقلّ ورعه وأصبح مبتذلاً إلا من رحم ربي، فإن الناس فضلاً عن السلاطين يهون عليهم من يداخلهم ويسقط من عيونهم

من يتبذّل لهم، فكن عملة نادرة واحفظ عليك وقتك وجاهك، فليس في العالم أحد غير الله يستحق الذل منك والخضوع، فاصرف له سبحانه التوجه والعبودية وتذكر قوله: «**أنا جليس من ذكرني**» فاغتنم الجلسة مع الله بتلاوة وذكر وتفكر، وكن حِلْس بيتك، وكفَّ عليك لسانك، وتدارك ما مضى منك من ذنوب بالتوبة، وقُمْ على رعاية أهلك وصلاح أبنائك، أما الدخول على كل أحد وحضور كل مناسبة فهو دليل على ضعف الإدراك وقلّة التمييز، وانظر تاريخ العلماء العاملين كيف حفظوا أوقاتهم وجاههم في طاعة الله فحفظهم الله وسددهم.

السفر

السفر متعة وسعة أفق، ولكنه يُذهب العمر ويشتت القلب ويضعف التّدين؛ لأن القلب فيه ينتقل من حال إلى حال، والعين تسترسل فيه إلى النظر إلى ما لا يحل أحياناً، فتقليل السفر مطلب للعقلاء؛ لأن فيه تغييراً لنظام الاستقرار والعمل، فلا تكثر من التنقل دون منفعة، وقد جربت الأسفار وتنقلت في الديار فوجدتُ أن النوافل تقل، والقلب يتشتت والوقت يضيع مع ذهاب الراحة وتغيّر النوم، ومن ثبت نبت، وقد دلفت علينا وسائل الاتصال من جوال وتلفاز ومذياع وإنترنت، وقرّبت لنا البعيد، وأعانتنا في الوصول إلى أهدافنا، فصار الاتصال ينوب عن اللقاء أحياناً، وأصبحت تشاهد في التلفاز الدول أمام عينيك. ثم إن العمر قصير، وقد رأيت كيف أن الوقت يذهب مني وأنا أنتظر ساعات طويلة في المطار لألقي محاضرة واحدة أو أحضر مؤتمراً قليل الفائدة، ولو بقيت في بلدي لأنتجت أكثر مقدّراً للمصالح والمفاسد، ولا تدمن السفر فعمّا قليل سوف تسافر سفراً طويلاً إلى الآخرة.

العَظَمة

عظّم الله في نفسك وعملك وكلامك يعزّك ربك ويرفع قدرك، فلا يكن في قلبك أعظم ولا أهيب ولا أحب من الله -جل في علاه- ثم بالله عليك من الذي يستحق الاحتفاء والاهتمام إلا هو سبحانه؛ فإن الخليقة كلهم تراب على تراب، ونفعك وعزّك وشرفك في التذلل له سبحانه والاستسلام لأمره وطاعته جل في

علاه، والعجب ممن اهتم بإرضاء البشر والخوف من سخطهم وهم لا يملكون ضراً ولا نفعاً، حتى إنك تجد بعض الناس يسعى في التقرب والتذلل لبعض الخلق وهو عاصٍ لربه مضيع لأوامره، وهذا هو الخذلان صراحة، وإلا فمن عنده عقل يدرك أن الواجب عليه أن يكون هواه تبعاً لما يرضي ربّه، وأن يصرف عمره كلّه في عبودية خالقه سبحانه، فهذا أطيب الناس عيشاً وأبهجهم قلباً، أما من صرف عمره في استرضاء الناس والخوف منهم والطمع فيما عندهم ونسي ربه فهذا هو المخذول الذي حُرم التوفيق وأغلقت أمامه أبواب السعادة.

التقليد

الإسلام دين الفطرة يوافق العقل ويواكب العصر وينهى عن التقليد، ولكن المشكلة أن كثيراً من العلماء قلّدوا غيرهم وألفوا اختيارهم فأصبحوا ينقلون كلام الآخرين وفتاويهم وعطّلوا مَلَكَة التفكير والتدبر، والرسالة إنما نزلت للجميع وما أغبى من رضي أن يكون مجرد ناقل وحافظ لكلام غيره يأخذه كأنه وحي مقدّس وهو بشر مثله! والواجب إعمال الذهن في نصوص الكتاب والسنة وعدم التشاغل بهذه الحواشي والشروح التي جمعتها الأمة خلال أربعة عشر قرناً وأصبحت جبالاً من الكتب وهضاباً من القراطيس، فتجد كل مذهب له مختصرات إلى أدلة، ثم تُشرح هذه المختصرات، ثم تنظم، ثم يُشرح النظم، ثم يُختصر، يم يُعلّق عليه، فتبتعد الأمة عن الوحي كلما زادت من هذه الحواشي والمتون، أيها العلماء أقبلوا على القرآن والسنة وتدبروا وتفكروا واتركوا التقليد وافهموا عن الله وعن رسوله ﷺ.

الغفلة

رأيتُ غالب الناس في غفلة وهم لا يشعرون وكأن عندهم أماناً من الموت، فهم في الأسواق طيلة النهار وغالب مجالسهم قيل وقال مع غيبة وسخرية، وكثير منهم يجمع المال وليس عنده عمر لإنفاقه، والقليل منهم عرف قيمة الزمن ولماذا خُلق وهم أحد رجلين: إما عالم منتفع بعلمه فهو في تفكر وتأليف وتدريس وفتيا، أو عابد فهو في ذكر ونوافل، وهذان هما السعيدان حقاً ويلحق بهما أصناف من أهل الخير

لكنهم قليل كالوالي العادل والجواد المنفق والمصلح بين الناس والقائم على الأرملة والمسكين، غير أن الغالب على الناس الانغماس في أهوائهم وتقليد بعضهم بعضاً، فتجدهم في لهو وطرب وغفلة وكثرة نوم إن لم تكن معاصي ومخالفات، والموفَّق من فهم لماذا خُلق وجعل من كل نَفَسٍ طاعة لله فأعدوا العدة وتزوّدوا بالصالحات، فإن تسبيحة واحدة تقرّبك من الله خطوة، فيا أيها الغافل سابق الأيام في عمل الصالحات، وبادر فقد نوديت: الرحيل الرحيل، وما بقي عليك إلا حسن الخاتمة والوصية والكفن وقريباً تُحمل على أكتاف الرجال.

المال

المال نعمة من نعم الله عز وجل ويبقى للإنسان أن يكسبه من حلال وينفقه في حلال، وليس بصحيح الدعوة إلى ترك جمعه أو إلى التبذير في إنفاقه فإن الحياة لا تقوم إلا بالمال، ورأينا من زهد في المال ثم حمله الفقر إلى السؤال وتعريض عرضه للامتهان، فعليك بحفظ مالك إلا من حق شرعي حتى تصون به جاهك، وتؤدي به الحقوق التي عليك كالنفقة على الأهل وصلة الرحم والضيافة ونحوها، والمذموم في مسألة المال أمران: جمعه من حرام أو إنفاقه في حرام، أما الدعوة إلى الاستهانة بالمال فإنها دعوة إلى الفقر والحاجة إلى الرجال وبذل الوجه في الشحاذة، وكان السلف يتاجرون ويسافرون لجمع المال؛ لأنه يحفظ دينهم وجاههم ويمنعهم من التردد على أبواب السلطان وسؤال الإخوان، فنظِّم دخلك ومصروفك وكن وسطاً في الإنفاق ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧)، ومال تنفقه على أهلك أو على أيتام أو على فقراء أفضل من صلاة النافلة مع تضييع قوت من يجب عليك الإنفاق عليه.

وقليل من عبادي الشكور

غالب الناس بلا همّ فتجد منهم طائفة اشتغلت بأمور لا تنفع كالاستغراق في علم الأنساب والبحث عن الآثار وجمع الشعر العامي وحضور الحفلات والغفلة عن ذكر الله، أما القليل فعرفوا المقصود من وجودهم فطلبوا العلم النافع وعبدوا الله

على بصيرة وحسنوا أخلاقهم، ولكن هؤلاء قليل نادر كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، فيا عاقلاً عرف لماذا خُلق اغتنم أنفاسك وزوّد الزاد فإنما إقامتك أيام معدودة، وفكر في من سبقك ممن شاد وساد، وملك العباد، وبنى القصور والحصون يود أحدهم لو عاد للدنيا ليقول: سبحان الله وبحمده، ولله درّ الهمم كيف جعلت بعض الناس يكمل أوراده وهو في سكرات الموت، فأبو الريحان البيروني يناقش أصحابه في مسألة علمية والموت قد أحاط به، ومنهم من كان يتلو ختمته وهو في السكرات، ومنهم من وزّع أوقاته على أصناف العبادات لكن الغافل مبنّج لا يشعر بالألم ولا يحس بالمعاناة والله الموفق.

التاريخ

من قرأ التاريخ بفهم وجد من تقلّب الزمان بأهله وسرعة انقلاب الأيام بالناس ما يذهل كل عاقل، وأعظم فائدة تستفيدها من قراءة التاريخ الاعتبار وهو منهج القرآن، ولهذا قال سبحانه ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢) ولما طالعت التاريخ قضيت عجباً من أناس سعوا إلى الملك فسفكوا الدماء وانتهكوا الأعراض وسلبوا الأموال وعاثوا في الأرض فساداً، ثم لم يتمتعوا بالملك طويلاً، فيزيد بن معاوية مكث أربع سنوات، وأبو مسلم الخراساني بقي زمناً قصيراً، فهل من عاقل يتفكر في تقلّب أحوال الدنيا وغدرها وجفائها وقلّة وفائها فتعد العدة والرحيل من عملٍ صالح وخُلق حسن وتأليف نافع وذكر حميد باقٍ، والذكي العارف ينظر إلى الدنيا كأنها حلم أو كأنها شريط مرَّ أمام عينيه وهي دار ابتلاء وامتحان وليست للثواب ولا للعقاب فالمبادرة المبادرة وعلى من قرأ التاريخ أن يتدبر فإن قرأ للصالحين ازداد خيراً وصلاحاً وإن قرأ سيرة الفجار أخذ الحذر واعتبر، ومصائب قوم عند قومٍ فوائد، ومن لم يقرأ التاريخ بقي عنده قصور في النظر وقلّة في التجربة لأن أخبار الأمم توسع المدارك وتلقح العقل وتنبّه من الغفلة وتمنح التجربة.